

أهمية التسامح في حيّاتنا



• طبيعة الإنسان:

يمتاز الإنسان بعده من الصفات التي يشترك فيها مع سائر أبناء جنسه، وعلى مدى أو مقدار التعرّف على هذه الخصائص والمعالم يمكن استخلاص الموقف المناسب في التعامل معه.

وإذا كانت الخصال الإيجابية في الإنسان مهمة في معرفة أي الأساليب أنجح في استقطابه، فإن معرفة الخصال الذميمة أو السلبية للإنسان تمكّننا من تفادي شروره، أو تحاشي الاصطدام به، أو تقليل الأضرار التي يمكن أن يُسبّبها لنا مادياً أو معنوياً.

القرآن الكريم رسم للإنسان صورتين: إيجابية وأخرى سلبية، أو قل إنّها صورة واحدة ذات وجهين، ولأنّنا نبحث عن (روح التسامح)، فإنّ وقفة متأمّلة لسمات الشخصية الإنسانية في القرآن، تجعلنا أكثر قُرباً من هذا الذي نريد أن (نسأمه) كما نريد منه أن (يسأمنا).

الصفات غير الحميدة للإنسان، هي:

- 1- كثير النساء: (وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَيْآدَمَ مِنْ قَبْلُ فَادَسَيْ) (طه / 115).
- 2- ناكر للجميل: (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ حُرْرَهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَيْهِ مَسَّهُ) (يونس / 12).
- 3- موجود ضعيف: (وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا) (النساء / 28).
- 4- ظالم: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (إبراهيم / 34).
- 5- بخيل: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ فَتُورًا) (الإسراء / 100).
- 6- عجول: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا) (الإسراء / 11).
- 7- كائن كثير الجدل: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) (الكهف / 54).
- 8- جهول، أي كثير الجهل: (إِنَّهُ كَانَ طَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب / 72).
- 9- قليل الصبر والتحمل: (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلْوَعًا) (المعارج / 19).
- 10- مغorer: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ الْكَرَيمَ) (الإنفطار / 6).

هذه هي نقاط ضعف الإنسان التي يمكن أن يجد لها علاجات من خلال إيمانه بالله تعالى، ونشأته في أحضان الدين، فهذه النسخة من الإنسان يمكن أن نطلق عليها بـ(المسودة) أو (المادة الخام)، وكما يمكن أن تنتهي المسودة، وأن تتشكل المادة الخام إلى ما هو صالح ونافع ومفيد، فذلك هو الإنسان.

إنَّ معرفتك بنقاط ضعف صديق أو قريب يجعلك تشقق عليه مرّة، وتحاول أن تقوّي نقاط ضعفه مرّة، وأن تغضّ الطرف عن أخطائه بسبب من تقديرك لتلك النقاط مرة أخرى، وفي جميع الأحوال فأنت تراعي إنساناً مثلك يحمل ما تحمل من نقاط ضعف، فتجد له العذر والمبرّر عسى أن يتمكّن من تجاوز نقاط

وهناك فرق بين أن تعتاب إنساناً يمتلك مقوّمات قوّة في شخصيّته منطلقاً من تقديرك لتلك المقوّمات العلمية أو العملية أو الأخلاقية، وبين أن تنتقد إنساناً عادياً لا يمتلك شيئاً من تلك المقوّمات، إلى أدنـك تؤخذ كـل شخص بحسب ما أوتيـ من مواهب وقدرات مزايا وخبرة، وفي الأعمـ الأغلب فإنـ أكثر الناس هم ممـن لم يصلوا مواهبيـ ولم يطـروا قدراتـ الذاتـ، فهم (كثـرو النـسيـانـ) وهم (ناـكرـو الجـمـيلـ) وهم (مـعـفـاءـ) و(طاـلمـونـ) و(بـخـاءـ) و(عـجـولـونـ) و(كـثـيرـو الجـدـلـ) و(جـهـلـاءـ) و(قلـيلـو الصـبـرـ) و(مـغـرـورـونـ).

ولعلـ أكثر الناس مسامحة لغيرـهم هـم (الأـبـواـزـ)؛ لأنـهم أكثرـ الناس معرفـةـ بـنقـاطـ ضـعـفـ أـبـنـائـهمـ، وأـشـدـ هـمـ حـبـاـ لـهـمـ، فـهـمـ مـسـتـعـدـونـ لـلـتـسـامـحـ وـالـمـسـامـحةـ مـرـارـاـ وـتـكـرـارـاـ، حتـىـ لـيـمـكـنـ القـوـلـ أنـ بـابـ العـفـوـ عـنـهـمـ مـفـتوـحـ طـوـالـ الـوقـتـ، وـهـذـاـ مـنـ بـعـضـ رـحـمـةـ اللهـ التيـ جـعـلـهـاـ فيـ نـفـوسـ الـوـالـدـيـنـ حتـىـ يـتـمـكـنـناـ منـ إـلـاصـحـ شـأـنـ الـأـبـنـاءـ، وـأـنـ يـعـيـشـاـ مـعـهـمـ أـطـوـلـ فـتـرـةـ مـمـكـنـةـ، وـأـنـ يـحـافـظـاـ عـلـىـ بـنـاءـ الـعـلـاقـةـ مـعـهـمـ فيـ أـشـدـ الـطـرـوـفـ وـأـحـرـ الـأـوـقـاتـ.

هـذـاـ النـموـذـجـ مـنـ التـسـامـحـ (الأـبـويـ) المـصـغـرـ أوـ الـأـوـلـيـ، يـمـكـنـ أـنـ تـتـسـعـ دـائـرـتـهـ أـكـثـرـ لـيـشـمـلـ (الأـصدـقاءـ) وـ(الـمـرـبــينـ) مـنـ مـعـلــمـينـ وـدـعـاهـ إـلـىـ اللهـ تـعـالـىـ وـمـرـشـدـينـ وـقـادـةـ. وـالـقـدـرـةـ عـلـىـ اـكتـسـابـ (التـسـامـحـ الأـبـويـ) ليـكـونـ تـسـامـحـاـ أـخـوـيـاـ، أـوـ تـسـامـحـاـ إـنـسـانـيـاـ تـنـبعـ مـنـ عـوـاـمـلـ ثـلـاثـةـ:

1- (كـلـنـاـ خـطــاـئـوـنـ)، وـمـاـ دـمـنـاـ نـقـفـ عـلـىـ قـدـمـ سـوـاءـ فـيـ اـرـتكـابـ الـخـطــأـ، أـيـ لـيـسـ فـيـنـاـ مـلـاكـ أوـ مـعـصـومـ، فـإـنـ التـسـامـحـ مـمـكـنـ وـمـبـرـرـ وـمـشـرـوـعـ.

2- (كـلـنـاـ ضـعـفـاءـ)، أـيـ أـنـ الـصـفـاتـ الـتـيـ نـعـتـنـاـ بـهـاـ الـقـرـآنـ مـوـجـودـةـ فـيـ كـلـ مـذـماـ بـنـسـبةـ أـوـ بـأـخـرىـ، وـالـضـعـيفـ عـادـةـ يـُقـدـرـ ضـعـفـ الـضـعـيفـ الـآخـرـ؛ لأنـهـ يـحـمـلـ نـفـسـ إـحـسـاسـهـ وـمـشـاعـرـهـ، وـكـذـلـكـ فـالـتـسـامـحـ بـيـنـ الـضـعـفـاءـ أـمـرـ مـمـكـنـ وـمـطـلـوبـ أـيـضاـ.

3- (كـلـنـاـ نـطـعـ بـعـفـوـ الـآخـرـ وـصـفـحـهـ)، وـلـوـ لـمـ يـكـنـ هـذـاـ مـمـكـنـ أـيـضاـ لـانتـفـتـ حـالـاتـ (الـعـتابـ) وـ(الـمـصالـحةـ) وـ(تـرـطـيبـ الـأـجوـاءـ) وـ(عـودـةـ الـمـيـاهـ إـلـىـ مـجـارـيهـ) وـ(رـأـبـ الـصـدـعـ) وـ(فـتـحـ صـفـحةـ جـديـدةـ).

- ما هو التسامح؟

(سمح) يعني: لانّ وسهل، وكلمة تسامح في اللغة مأخوذة من (تفاعل)، أي أنّها حركة باتّجاهين: مساحتك للآخر، ومساحة الآخر لك، مثل (تقاسم) و(تشاطر) و(تحاب) و(تعارف) و(تنافر). والتسامح أيضاً من السماحة، وبالتالي فالتسامح يعني قبول اختلاف الآخرين.

- هل يمكن أن يكون التسامح من طرف واحد؟

نعم. وعندما نُسمّيه بالتسامح أو (المساحة)، في يوسف (ع) سامح أخوته الذين أخطأوا بحقّه مرتين: مرة حين ألقوه في غيابة البئر، ومرة حين اتهموه بالسرقة، وقد لاحظ نقطة ضعفهم وهي (الجهل)، ولذلك قال لهم: (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْأَيَّمَ) (يوسف/ 92).

ويدور الزمن دورة واسعة، ليتكرر المشهد بين المخطئين والخاطئين من قريش بحقّ النبيّ محمد (ص)، فإذا هو يُسامحهم كما سماح يوسف (ع) إخوته، ولا ندري إن كان محمد جنوب أفريقيا من التمييز العنصري (نيلسون ما نديلا) قد اطلع على هذه الشواهد من خلال مطالعاته أو قراراته للتاريخ أو أنّه استلهمها من روح الدين الذي يدعو إلى التسامح، حين دعا مسطهدي السود في جنوب أفريقيا إلى الاعتراف بأخطائهم ليكون ذلك سبباً في العفو عنهم؟!

- هل يمكن اعتبار المساحة أو التسامح ضعفاً؟

أبداً، وكلا، فالتسامح أو المساحة مؤشرة قوية، لأنّها تعني: (العفو عند المقدرة)، وامتلاك المسماح لـ(قلب كبير) ومنحه المخطئ فرصة أخرى ليُصحّح خطأه ويُفكّر عنه ذنبه، كما تعني أنّ حرص المسماح على (ترميم) العلاقة أكثر من رغبته في هدمها أو المشي على أطلالها.. إنّها رغبة في التعايش السلمي والإيجابي.. التسامح قوية وليس ضعفاً.

- هل يمكن اعتبار التسامح عجزاً عن إيذاء الآخر الذي آذاناً؟

إنَّ الذي يصفح الذي صفعه، والذي يجرح مشاعر الذي جرح مشاعره، والذي يُحصي على الآخر أخطاءه وعثرااته وزلاته ليفضحه بها تماماً؟ كما فعل ذلك من قبل صاحب تلك الأخطاء، والذي يكيل الصاع صاعين، ويحيل (الهفوة) إلى جريمة لا تُغتفر، هو الإنسان العاجز في مفهوم العجز من وجهة نظر أخلاقية.. هو لا يجيد لغة ثانية ولا يُحسن أن يكتب على الرمل.. هو على أيةِّ حال ضعيف.

حيثما قال (هابيل) لـ(قايل): (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيْهِ يَدَكَ لَتَقْتُلَنِي مَا أَرَى
بـ(اسطٍ يـدٍ إـلـيـكَ لـأـقـتـلـكَ) (المائدة/ 28)، لم يكن عاجزاً عن مواجهة (الانفعال)
ـ(الانفعال) وـ(السـكـين) بـ(السـكـين)، أو ربـما بالساطور أو السيف، وربـما حاول أن يثنى أخيه عن
ارتكاب فعلته النكراء بالدفاع عن نفسه أيضاً، لكنه كان أمام خيارين:

الثاني: أو أن يحكّم عقله ويتحكم بأعصابه ليكون الأقوى في معرفة الانفعالات الهاجمة حتى وإن كان هو الضحية أو الذي سيغادر المسرح ليترك القاتل (بطلاً) في نظر (القابيليين) و(مجرماً) في نظر المتعاطفين إنسانيّاً مع قضيّة هابيل التي تمثل البراءة المُعتدى عليها على طول التاريخ.

يقول (غاني) صاحب مبدأ (اللاءُنف): "التّسامح من سمات الأقوباء" !!

إن^٣ الشاعر الذي قال عن إخوته وبني عمومته:

فإِن أَكْلُوا لَحْمِي وَفَرْتُ لَحْوَمَهُم *** وإن هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُم مَجْدًا

يُعَبِّر عن حالتين أو مدرستين: مدرسة (التسامح) المتعالية، ومدرسة (الانتقام) المتساولة.. عن قabil المُنتقم القاتل، وعن هabil المُتذمِّن العاقل.

- ماذا يمكن أن نكتسب بالتسامح؟

الكثير.

إذننا، إذا امتلكنا روح التسامح، أشعلنا جوًّا من الصفاء والمودة بيننا وبين الآخرين، ولسنا بحاجة إلى استعراض ما تُسند به العداوة والبغضاء والشذوذ بين الناس من خسائر لا يمكن إحصاؤها.

إذننا، قد نقلب الطاولة للذين كانوا يناسبوننا العداء، فإذا هم أولياء أو أقرب إلينا مما كنّا نتصور، وسيبيّن كيف أنّ ردّ الإساءة بالإحسان، قد قلبَ موازين القوى، وغيرَ الكثير مما كان يعتبر حالات صعبة، أو مستحيلة التحوّل والانقلاب.

إذننا، بتسامحنا، نرتفع، ونرتقي، ونتسامي إلى الحالة (اليوسفية) أو (المحمدية) التي تعصفُ على الجراح، وتعالى على موقف (التشفي)، وتنطلق لتخالق بأخلق آدلة: العفو، الغفور، اللطيف، الرؤوف، الرحمن، الرحيم.

إنَّ مَنْ يُسْتَطِيعُ أَنْ يُسَامِحَ يُصلِحُ أَنْ يَكُونَ قَائِدًا رَبِّانِيًّا، نَبِيًّا، أَوْ وَلِيًّا، أَوْ مُعَلِّمًا، أَوْ أَبَا صَالِحًا، أَوْ مُصْلِحًا مَؤْثِرًا، أَوْ حَاكِمًا رَحِيمًا.

قول لي: هل تستطيع أن تُسامِحَ؟ وهل فعلتها مرّة أو مارأى، أقول لك مَنْ أَنْتَ!

إنَّ العفو والصفح والمسامحة من شَرِيمِ النبلاء وأخلاق الكبار، وكبار القوم - عادةً - في موافقهم لا في أعمارهم. يقول الشاعر:

وَلَا أَحْمَلُ الْحَرَقَدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ *** إِنَّ رَئِيسَ الْقَوْمِ لَا يَحْمِلُ الْحَرَقَدَا

ويتّضح لنا أنَّ التسامح سببٌ مهمٌّ من أسباب الصحة النفسية.. إذنَّه يُعزّزُ أواصر الأخوة والتلامح الأسري، والتعايش السلمي بين الساسة والمواطنين وأشقّاء الأديان.

يقول (جيرالد ما مبولكس) في كتابه (التسامح أقوى علاج على الإطلاق): "قوّة الحب" والتسامح في حياتنا يمكن أن تصنع المُعجزات! وصدقَ فيما قال. ▶

